

الدرس الرابع والعشرون

تاريخ التشريع الإسلامي

❖ شيوخ الإمام أحمد كثر وجلهم شيوخ في الحديث أخذ عنهم وروى عنهم الأحاديث التي يرونها عن رسول الله وربما بلغوا مئة أو أكثر ولكن الذين ترجموا للإمام أحمد **ركنوا** الحديث على اثنين كان لهم أثر ودور بارز في حياة الإمام أحمد.

الأول: فقد أوجد في الإمام أحمد نزعة دراسة الحديث وحبب إليه الاشتغال بدراسة الحديث حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو هشيم بن بشير وقد لازمه أربع سنوات وهو ولد في عام 104 وتوفي في 183 هذا العالم الكبير كان له دور كبير في حبه الاشتغال بالحديث.

الثاني: حبب إليه دراسة الفقه وأصوله وهو الإمام الشافعي.

- وقد تخرج الإمام أحمد من عند هؤلاء فكان عالماً من علماء الحديث وقد عرف بقوة حافظته وانتشر علمه في الآفاق وذاعت شهرته في العالم الإسلامي وهو حي فقد كان كثيرون يشتهرون عن طريق تلاميذهم والتدوين لهم أما هو فشهرته من ذاته وإليك بعض الأقوال في علم الإمام أحمد:

أحمد بن سعيد الرادس (أحد شيوخه): ما رأيت رجل أسود الرأي أحفظ للحديث ولا أعلم بفقته رسول الله من أحمد بن حنبل.

الإمام الشافعي: قال عنه كثيراً ومن أبرز ذلك:

(أنت أعلم بالأخبار الصحاح فإن كان خبر صحيح فأخبرني أو فأعلمني حتى أذهب إليه كوفياً أو بصرياً أو مصرياً أو شامياً) ونعلم أن الإمام الشافعي كان محدث وقد اشتغل بالحديث وله مسنده وقد حفظ الموطأ وكلامه تعبير عن الثقة.

علي ابن المدين (شيخ الإمام البخاري) كان معاصراً للإمام أحمد يقول:

ليس فينا (وتشمل كل المحدثين من يحيى بن معين وأحمد بن سعيد الرازي وتشمله وتلميذه البخاري وكل المحدثين الذين كانوا آنذاك) أحفظ من أحمد بن حنبل.
أحمد بن معين: من أجل علماء الحديث ومعاصر له: والله لا نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد.

وذلك على ما أخذه من علم الحديث حفظ ورواية وكتابة والمعلوم أن الإمام أحمد ما فرق الورقة حتى مات وقد قال له أحد أصحابه إلى متى تحفظ هذه المحبرة يا أبا عبد الله فقال: مع المحبرة إلى المقبرة.
نلاحظ من هذا الكلام تركيز كبير على كونه محدث أكثر من كونه فقيهاً حتى إن بعض من ترجم له مثل الطبري قال إنه محدث فقط وضمنوا عليه بلقب الإمام في الفقه.

ولكن ما السبب أن الأضواء أوضحت كمحدث فقط:

1- كان الإمام أحمد شديد التمسك بالكتاب والسنة أو ربما حملته شدة التمسك على المبالغة قليلاً فقد كان يرى أن الإنسان لا ينبغي أن يعرف سهراً لكتابة شيء إلا إذا كان قرآن أو سنة أو ما وراء ذلك فلا داعي لكتابة غير ذلك وذلك لأن العلوم الأخرى لا ترتقي إلى منزلة القرآن والسنة بحيث تشترك معها في أن تكتب ولهذا السبب كان ينهى من يكتب عنه الفتوى وذكرنا السبب الآخر ولهذا كان يبالغ في الورع.

2- إن فقه الإمام أحمد فرع عن حديثه: أي أن الإمام أحمد فقيهاً فرع عن الإمام أحمد محدثاً، فهو من كثرة حفظه للأحاديث وعى مضمونها ولما وعى مضمونها ذلك تفقّه بها ففقّه هو الفقه المأثور أي: عندما يبحث في القضايا الفقهية لا يدبر لسانه في المسألة الفقهية إلا إذا بحث في هذه المسألة السلف من قبله من الصحابة والتابعون عندئذ يجراً أن يدلي بدلوه ويتكلم في هذه المسألة دون أن يخرج عما قالوا، أما إذا طرحت مسألة جديدة ما تكلم بها أحمد من قبله فإنه يمسك

لسانه عن الخوض فيها بل وينصح تلاميذه بذلك (لا تخض في مسألة فقهية لا ترى فيها إمام من قبلك قد سبقك بالحديث فيها).

هذه الأسباب جعلت حركة الإمام أحمد في الفقه أضيقت منها في الحديث ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن مثل أقرانه في الفقه وعلمه وحسبنا شهادة الإمام الشافعي له، وسبب انتشار فقه الإمام أحمد تلاميذه رغم أنه عرف واشتهر في حياته.

ما هي آراء الإمام أحمد في: 1- العقيدة 2- السياسة 3- الفقه.

العقيدة: كان يرى ما يراه أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، أساسه القول المنبثق من القلب وتمامه العمل واصطباغ الظاهر بالباطن وأن الإيمان يزيد وينقص (راجع دروس العقيدة) ويجزم بأن ارتكاب الكبيرة وحدها لا يكفر صاحبها ولا يخرج المسلم من دائرة الإيمان (حقوق الله أو الناس أو التي لا حدود فيها) ولكن تضعف الإيمان.

❖ وقد نقل الناس عن الإمام أحمد أن ترك الصلاة يكفر!؟

وهذا مناقض لعموم مذهبه في هذا ولما اتفق عليه سائر الأئمة من علماء السنة والجماعة والحقيقة أن هناك ضعف في السند وليس حقاً أن الإمام أحمد قال إن ترك الصلاة مطلقاً يكفر ولكن نقل هذا عنه، والأمر يحتاج إلى تحقق.

إن ترك الصلاة كبيرة من الكبائر ومبدأ الإمام أحمد كسائر المسلمين أن الكبائر أياً كانت لا تخرج صاحبها في الكفر حتى ولو كانت الكبائر كثيرة، ولكن كيف يقول إن ترك الصلاة يكفر.

الجواب: الحقيقة إننا نرجح ما قال أكثر العلماء وأنه يقصد الإنسان الذي تعود دائماً على ترك الصلوات دأبه عدم الاتجاه إلى القبلة ودأبه عدم الصلاة ولعله (وها لا يبعد هذا) إن استظهر من عمله الدائب هذا واستمرار على ترك الصلاة أن غير موقن بها وأنه مستخف بها ولا شك أن ذلك الإنسان الذي يتكها ازدراءً أو عدم اليقين بها مطلقاً يكفر وهو لم يكفر بالترك ولكن بالازدراء وعدم الإيمان الجازم بأنه

مكلف بها، وإذا قلنا أن الترك يزج صاحبه بالكفر ثم إنه لم يتب فالأمر لا ينتهي عند هذا الحد بل إن زوجته تبين منه لا عن طريق الطلاق بل يفسخ العقد أصلاً وكل الأولاد الذين يأتونه في ظل ابتعاده عن الصلاة أولاد سفاح وإن دعي على الشهادة فشهادته باطلة وإن مات لا يرث منه أولاده وهو لا يرث منهم، ونحن ما سمعنا الإمام أحمد يقول مثل الكلام، ولو أنه يرى ترك صلاة واحدة يكفر لنبه إلى ذلك وهو الإمام الورع بقوله: يا هذا إما أن تتوب إلى الله عز وجل وإلا فإن زوجتك سينفسخ عقدها منك ...

هذا الرأي يأخذ به السلفيين ظناً منهم أن الإمام أحمد قاله ويقولون بكل بساطة يا هذا أنت كفرت ولكن نريد أن يكملوا قولهم بالنتائج إننا نجد أن الإمام أحمد كان كثير الخوف من الله أما تهمة التكفير كلمات كثيرة قد تكفر صاحبها ولكن يقول يشك في إيمانه يخشى أنه قد كفر هذا هو الورع والحيطه في التعبير.

العقيدة: كان مع أهل السنة في فتنة خلق القرآن وكان يجزم بأن العبد يرى ربه يوم القيامة ورؤيته تامة صحيحة دون كيف هذه الأمور (العقيدة) لم يقع خلاف فيها بين أهل السنة والجماعة الذين نوه بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: [عليك بالجماعة عليك بالسواد الأعظم]، أما الذين يثيرون فتن وأمر مستحدثة وبدع فهم منشقون عن الجادة من أمثال الخوارج والمرجئة والجهمية والمعتزلة أولئك الذين انتهوا وذهبوا.

السياسة: أي موقفه من الخلافة وترتيب الصحابة بالأولوية وموقفه تجاه سيدنا علي والفتنة.

ذهب على ما ذهب إليه كل الأئمة وهو الإيمان بالترتيب المعروف دون انتقاص أي منهم بكلمة سوء بل يقول (من سب أحد الصحابة تخشى عليه من الكفر) وقد

كان يجل الإمام علي كثيراً ويقر بخلافته ويعلم أن معاوية من ناصبه ونافسه في الخلافة ويقول (من لم يثبت خلافة علي فهو أضل من حمار) فقد كان يقدر الإمام علي ويشدد في الدفاع عنه ويقدم أبو بكر عليه.

- كيف كان يقدر ويقدم هكذا!؟

الحجة في هذا هو عمل سيدنا علي رضي الله عنه فقد بايع سيدنا أبو بكر علي الخلافة وكان من الأوائل الذين بايعوا سيدنا عمر وعثمان فإن قالت الشيعة إن الإمام علي معصوم فهذه حجة مضاعفة عليهم لأن الإمام المعصوم بايع وإن لم يكن كذلك فهو واحد من الصحابة الذين تم بهم الإجماع على الخلافة.

ولعل من أعظم البراهين على أن الترتيب الصحيح هو الذي نعرفه أنه لو انعكس الترتيب لما استفادت الأمة من هؤلاء الخلفاء كما استفادت بهم على هذا الترتيب ورغم الإجلال الكبير الذي يكنه الإمام أحمد لسيدنا علي إلا أنه لم يمد لسانه بقالة السوء اتجاه معاوية تأدياً مع صحابته عليه الصلاة والسلام وعندما يسئل عن معاوية والفتنة يقول رحمه الله تعالى ما أقول فيه إلا الحسنی.

- هذه المواقف من هؤلاء الأئمة الذين شهد العالم كله لهم بالصلاح والموضوعية ينبغي أن يكونوا قدوة لنا نقتدي بهم ونحذو حذوهم فالمؤمن ينبغي أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس: [إن استطعت أن تبيت وليس في قلبك غل (غش) لأحد فافعل فإن من فعل ذلك فقد أحبني ومن أحبني فقد أحيا سنتي ومن أحيا سنتي كان معي في الجنة]، على المؤمن أن يمسك لسانه وليسعه بيته وليبكي على خطيئته لا أن ينسى نفسه ويناقش في أخطاء الآخرين.

- بالنسبة لرأي الإمام في الخضوع والطاعة للإمام ومتى ينبغي أو يحق لنا الخروج عنه فراه هو رأي كل الأئمة وأهل السنة والجماعة وما خرج عنه أحد.

لا يجوز الخروج عن إمام المسلمين براً كان أم فاجراً ظالماً كان أم عادلاً فاسقاً كان أم غير ذلك لا يجوز الخروج عليه ما دام مسلماً وما لم نجد سبباً واضحاً نستطيع تبرير عملنا هذا أمام الله عز وجل من تكفير.

والنص الكامل لهذا في بعض رسائله من كتاب مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي هو: (السمع والطاعة واجبتان للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر من ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وليس لأحد أن يعطن عليه ولا أن ينازعه ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصى المسلمين فإن مات ميتة جاهلية).

يجب الصبر تحت لواء السلطان على ما ظهر عنه من **عزم** أو جور ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا، هذا الكلام هو نفسه في جميع كتب الفقه. ولكن قيمة هذا الكلام له معنى خاص هنا لأنه قول رجل سيق إلى المعتصم وعذب وضرب وأهين وأجبر على القول بأن القرآن مخلوق.

وبالتالي فهو يستطيع أن يبرهن بالتسلسل المنطقي أن كلامه كفر وبالتالي فقد كفر المعتصم وبراء الناس من الطاعة والبيعة له.

ولكن ما كان له وهو ذلك الورع التقى الذي يأبى أن يتسلل أهواء نفسه إليه، أما السبب لعدم تكفيره للمعتصم (لازم المذهب ليس بمذهب) أي الشيء الذي يكفر الإنسان يلازمه نحن نتوقى منه، أي لا نقول: فلان قال كذا وهذا يدل على كذا وبديل كذا فهو كافر، لا الكفر يكون بصحيح العبارة والقول، لا يمكن أن نكفر بالتسلسل (هذا إذا لم يمكننا التأويل من نحسن الظن به) لاحظوا الفرق بين موقف الإمام أحمد وموقف القاضي إسحق عندما كاد المعتصم يقتنع بكلام الإمام أحمد، الموقف الأول هو الموقف الذي يوحد الأمة ويلم شملها، الموقف الثاني هو موقف العصبية والذي يفرق ويقسم الأمة إذاً عليك تجاه الإمام الفاسق والفاجر أن يكون

موقفك مثل موقف الإمام أحمد ولا يعني قولنا عدم الخروج على الإمام الخروج على الإمام الفاسق والفاجر أننا لا نأمره ولا ننهاه عن المنكر (الدين النصيحة لعامة المسلمين) ولكن يجب عليك أن تأمره بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس لك بعد ذلك أن تحول الأمر والنهي إلى الخروج بالقوة والسلاح أمرت بطاعة عليك أن تطيع أمرت بمعصية لا تفعل ولو كان بالأول ذهاب لحظك وإعطاء لمالك إتباعاً لقوله عليه الصلاة والسلام [أطيع وإن أخذ مالك وإن ضرب ظهرك] طبعاً في غير معصية ولك أجر بهذا لأنك درأت فتنة.

كن إنسان يطفى نار الفتنة ولا ينفخ في لهيها وبنفس الوقت كن آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وتمسك بقاعدة [لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق] .